العلاقة بين الكفر بالطاغوت وبين تكفيره

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله.
هذا بيان لدلالة حقيقة الكفر بالطاغوت على تكفيره ، و لنوع هذه الدلالة.

ويتضمن رداً على من زعم أن أول من قال بهذا هو شيخ الإسلام ابن عبد الوهاب رحمه الله وأن هذا القول محدث لعدم وجود الدليل الصريح على ذلك من القرآن والسنة، ومعيارهم للصريح هو بحسب مقدار علمهم بالعربية، متجاهلين بذلك دلالات الألفاظ الأصولية ومتجاوزين لها، وهذا ينمّ عن جهل عظيم من أصحاب هذا القول.

وسأعرض بيان هذه المسألة بمعونة الله على وجه الإجمال أولا ثم على وجه التفصيل.

أما عن البيان الإجمالي:

فإن السلف لما فسروا الطاغوت بالمثال في آيات مختلفة منها (فمن يكفر بالطاغوت)، ذكروا ما هو عاقل وما هو ليس بعاقل كالأوثان.
والذي يهمنا من ذلك العاقل ، فذكروا في تفسيره : الشيطان وسدنة الأصنام والكهنة وحيي بن أخطب وكعب بن أشرف والساحر وجميع هؤلاء عند من فسر الطاغوت بأحدها كافر ، ولم يفسر أحدهم الطاغوت بعاقل كان طغيانه بمعصية ، فدل هذا دلالة صريحة على أنهم لا يَرَوْن الطاغوت إلا كافرا، ويشهد لصحة هذا قوله تعالى (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، وقوله

(والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) و قوله (ألم تَر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بِالْجِبْتِ والطاغوت)، فأيما عاقل رضي هذا المعنى لنفسه فهو كافر، إذ الرضى بالكفر كفر.

كما يدل على صحة هذا قوله تعالى (الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت)، فإذا كان المرء يكون كافرا بقتاله في سبيل الطاغوت ، فمن باب أولى أن يكون الطاغوت نفسه كافرا.

وقوله تعالى (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت)، فكيف يكون من كان وليه الطاغوت كافرا، والطاغوت نفسه ليس بكافر، هذا لا يستقيم.

والقرآن يفسر بعضه بعضا.

وعليه فقوله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت) المراد منه البراءة الخالصة التي تقع على من كان من رؤوس الكفر ، فكيف لا يكون الطاغوت كافرا.

وأما عن البيان التفصيلي:

فإن الكفر بالطاغوت معناه كما في كتب التفسير البراءة منه.

وتكفير الطاغوت معناه إخراجه من الملة.

ولا دلالة للكفر بالطاغوت على تكفيره مطابقة ولا تضمنا.

ودليل ذلك خلو كتب التفسير واللغة من هذا المعنى.

وخلو كتب اللغة من ذلك يعني نفي وجود هذا المعنى من جهة الحقيقة اللغوية.

وخلو كتب التفسير من ذلك يعني نفي وجود هذا المعنى من جهة الحقيقة الشرعية.

كما يدل على اختلاف المعنيين وجود الفرق بين الفعلين: فـ "كفَّر بـ" فعل

ثلاثي مجرد وهو لازم وعُدّي بالباء، بخلاف "كفّر" فهو فعل ثلاثي مزيد بحرف وهو متعدي ، والزيادة في المبنى زيادة في المعنى.

وأما عن دلالة التلازم فلكونها دلالة عقلية لا لفظية (أي لفظية من جهة وعقلية من جهة أخرى ، لا أنها عقلية محضة ، وذلك لتعلقها بمعنى خارج اللفظ)، فلا وجود لها في المعاجم اللغوية ، وأما كتب التفسير فخلوها منها لا يعني انعدامها. إذ تفسير آية ما بدلالة التلازم ممكن ، بل هو واقع ، وهذا مسلك معروف من لدن الصحابة والتابعين ، حيث حمل المفسرون من بعدهم قولهم في تفسير آية ما على أنها بدلالة التلازم. وقد سلك عدد من المفسرين سبيلهم ولكن لتفسير جملة من الآيات لا كل الآيات. وهذا بخلاف دلالة المطابقة والتضمن ، فهي دلالات لفظية ، ولا بد من وجود أحدهما في تفسير آية ما، أو ما في معناهما من طرق التفسير التي فصل فيها ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير (التي هي سبب في اختلاف التنوع بين السلف) ، وسبب ذلك قد أشار إليه الغزالي بقوله: "وإياك أن تستعمل في نظر العقل من الألفاظ ما يدل بطريق الالتزام، لكن اقتصر على ما يدل بطرق المطابقة و التضمن، لأن الدلالة بطريق الالتزام لا تنحصر" اهـ.

مع التنبيه على أن الأصوليين يعتبرون دلالة التلازم منها ما هو صريح ومنها ما هو غير صريح خلافا للمناطقة.

وبعد هذه المقدمة آتي على بيان دليل علاقة التكفير بالكفر بالطاغوت، وذلك من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: دلالة التلازم:

وذلك أن معنى الكفر بالطاغوت هو البراءة منه ، وهذه البراءة براءة خالصة لا موالاة فيها ، وهي بخلاف البراءة من المسلم المبتدع أو المرتكب لكبيرة ، فإنه يجتمع فيه ولاء وبراء .

وكون الكفر بالطاغوت يتحقق بالبراءة الخالصة دليله:

أولا: أنه مقابل للإيمان بالله ، فلزم أن يكون كذلك ، فهو كقول إبراهيم عليه السلام (إنني برآء مما تعبدون إلا الذي فطرني)، وقوله تعالى (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت).

ثانيا: أن أحكام القرآن غائية كما قرر الشاطبي في الموافقات.

ومعلوم شرعا أن البراءة الخالصة لا تقع إلا على كافر، فتحصل من الدليلين أن الطاغوت كافر وهذا بدلالة الإشارة ، وهي من المنطوق غير الصريح ، ومن ههنا جاء التلازم بين الكفر بالطاغوت وتكفيره، إذ دلالة الإشارة أحد أنواع دلالة التلازم.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن مسمى الطاغوت نفسه يحمل معنى يستلزم تكفير العاقل الذي يدخل في مسماه. وبيانا لهذا يقال أن لفظ الطاغوت أصله مشتق من طغى وطغيان وهو مجاوزة الحد، فهذه حقيقة أصله اللغوية، ويأتي الطغيان في القرآن بمعنى تجاوز الحد بكفر أو بمعصية، وهذه هي الحقيقة الشرعية لكلمة الطغيان. وأما كلمة طاغوت فهي على وزن فعلوت الذي يفيد المبالغة، وإذا نظرنا لها من جهة أوجه استعمالها في القرآن ، فسنجد أن ذكر الإيمان بالطاغوت وعبادته على الضد من الإيمان بالله وعبادته ، ويشهد لهذا قوله تعالى (أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) ، وقوله (والذين اجتنبوا

الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) و قوله (ألم تَر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بِالْجِبْتِ والطاغوت) ، والراضي بذلك لا يكون إلا كافرا ، بل من رؤوس الكفر ، ومن ثمّ لزم تكفيره.

الوجه الثاني: مفهوم المخالفة مع قياس الأولى:

قوله تعالى (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)، دلت الآية بمفهومها على أن من لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى، والعروة الوثقى فُسّرت بشهادة التوحيد ، وبالإسلام ، وبالإيمان ، وهذا من قبيل اختلاف التنوع في التفسير كما وضح ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير ، وعليه فمن لم يؤمن بالله أو لم يكفر بالطاغوت لم يستمسك بالعروة الوثقى ، فهو إذا كافر. فإذا كان حكم من لم يكفر بالطاغوت كافرا ، وذلك إذا لم يتبرأ منه بالكلية ، فمن باب أولى أن يكون الطاغوت كافرا . ويشهد لهذا قوله تعالى (الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) فإذا كان المقاتل في سبيل الطاغوت كافرا بدلالة التنبيه والإيماء ، فمن باب أولى أن يكون الطاغوت كذلك، ومثله يقال في قوله تعالى (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) ، فإن كان الكافر وليّه الطاغوت ، فكيف لا يكون الطاغوت نفسه كافرا.

الوجه الثالث: اللازم الصريح لأقوال السلف:

كل من فسر من السلف الطاغوت بالمثال الذي يعقل في آيات مختلفة كقولهم الشيطان والكهنة وسدنة الأوثان وحُيَيُّ بن أَخْطَبَ وكَعْبُ بن الأَشْرَف والساحر، جاؤوا بالمثال الذي يعتبر عند قائله كافر ، فدل هذا بدلالة اللازم

الصريح لقولهم أن الطاغوت الذي يعقل عندهم كافر ، وهذا فيه إبطال لمن نفى عن السلف القول بنفي العلاقة بين الكفر بالطاغوت وبين تكفيره كلية.
(والتفسير بالمثال من أنواع التفسير عند السلف ، والاختلاف فيه اختلاف تنوع كما ذكر ابن تيمية في مقدمته)

وهذه الأوجه من الاستدلال أي قياس الأولى والمفهوم والتلازم قد ثبت اعتمادها عن السلف في عدد من مسائل الاعتقاد ، ولا ينكر هذا إلا جاهل.

وأما عن تكفير من لم يكفّر الطاغوت بحجة أنه لم يكفر بالطاغوت:
فلما كان تكفير طاغوت ما على التعيين مسألة يدخلها الخفاء من ثلاثة أوجه:
من جهة الدليل: لكون العلاقة بين الكفر بالطاغوت وبين تكفير عينه تلازمية، كما سبق بيانه .
ومن جهة تحقيق مناط الحكم: لكون دخول فرد ما تحت مسمى الطاغوت أحيانا يكون قطعيا ومنصوص عليه ، وأحيانا يكون إجتهاديا ، لارتباطه بتحقيق المناط.
ومن جهة العلم بذلك: لكون العلم بهذا يتفاوت الناس فيه ، ويختلف من شخص لآخر، لما لحق هذه المسألة من غربة علمية (ذكر ابن تيمية أن الغربة كما تصيب الأشخاص فإنها تصيب أيضا المسائل العلمية).
صار تكفير من لم يكفره راجعا إلى علة تكفير من لم يكفر الكفار الأصليين، وهي أحد أمرين: إما تكذيب الوحي، وهذه ذكرها القاضي عياض في الشفا ، أو الرد على الله أمره (أي كما رد إبليس)، وهذه ذكرها ابن قدامة في روضة

الناظر ، وذكر علتي التكفير هذين في سياق آخر من مسائل التكفير الإمامان أحمد بن حنبل وأبو عبيد القاسم بن سلام، وهذا لا يُتهم به معين إلا بيقين.

وعليه فوجوب تكفير طاغوت بعينه منوط بأمرين: العلم بحكم الله فيه، والعلم بتحقق مناط الحكم فيه، وهذا متوقف على معرفة واقعه. فمن علم كلا الأمرين لزمه تكفيره، ومن لا فلا، لأنه لا يقوم التكليف مع عدم العلم.

وأصل ضلال خوارج العصر في هذه المسألة أنهم جعلوا الكفر بالطاغوت مرتبة واحدة كما جعل أسلافهم من قبل الإيمان شعبة واحدة ، فإما أن يُؤتى به كله أو يزول كله ، وهكذا قال أفراخهم ، لن تكون كافرا بالطاغوت حتى تكفر كل معين منهم وإلا فأنت كافر ، وجهلوا أن الكفر بالطاغوت له أصل وفرع ويقع مجملا ومفصلا ، تماما كما يقال في الإيمان.
فمن حقق البراءة من جنس الطاغوت، وكذلك مِمَّن علم من أعيانه، وتبرأ مما طغوا فيه فقد حقق أصل الكفر بالطاغوت، وكفر به على وجه الإجمال.

وأما من رام الرد على الخوارج بنفي كلي لوجود علاقة بين الكفر بالطاغوت وبين تكفيره، فقد سار على خطى المرجئة لما ردوا الباطل بباطل آخر، وذلك بإخراجهم العمل من الإيمان فرارا من غلو الخوارج، وصار فيه شبه منهم بصنيعه هذا، والله المستعان.

كتبه ولد الحاج محمد الإفريقي